التأصيل لأدب الشهادة

أ. شافية هلال جامعة الأمير عبد القادر . قسنطينة .

أضحى أدب الشهادة سجلّا حافلا وناطقا وشاهدا على العلاقة الحميمة التي نشأت بين الشعر والشهادة مع امتداد آماد الجهاد في سبيل رفع كلمة الله، فواكب الشعر المجاهدين ورافق جحافلهم فكان عنصرا مضافا إلى عزمهم، فحرص الشعراء على إبراز قيمة الشهادة باعتبارها رمزا متقدما في العطاء من أجل المبدأ، وعلى بيان مغزى التضحية واستطابة الموت، وعلى تصوير ما أعده الله للشهيد من منزلة وفضل في الآخرة.

1-المدلول اللغوي والاصطلاحي للفظة "الشهيد":

الشهيد لغة: مشتق من الفعل الثلاثي "شهد"، فالشين والهاء والدال أصل يدلّ على حضور وعلم وإعلام[1]، والشهيد: المقتول في سبيل الله، والجمع شُهداء، والاسم: الشهادة، واسْتُشْهِدَ: قتل شهيدا، وتَشَهَّد: طلب الشهادة[2].

فالمدلول اللغوي للفظة الشهيد لا يخرج عن معنى الحضور أو العلم أو المشاهدة، وقد استخدمت بهذا المفهوم عند الشعراء، ومن ذلك ما أنشده ثعلب من قول الشاعر:

كأنّي وإن كانت شهودًا عشِيرتِي إذَا غِبْتَ عنِي يا عثيمُ غَرِيبُ

أي إذا غبت عني فإني أكلّم عشيرتي، ولا أنْس بهم وإن كانوا حاضرين حتّى كأني غريب[3].

أمّا عن سبب تسمية الشهيد بهذه التسمية فللعلماء فيها تعليلات متعدّدة:

«قال ابن الأنباري: سمّي الشهيد شهيدا لأنّ الله وملائكته شهود له بالجنّة، وقال النضر بن شُمَيل سمّي بذلك لأنّه حيّ ولأن أرواحهم شهدت دار السلام، وأرواح غيرهم لا تشهدها إلا يوم القيامة، وقيل سمي بذلك لأنه حيّ لم يمت كأنه شاهد أي حاضر، وقيل سمّي بذلك لأنّ ملائكة الرحمة تشهده، أي تحضره، وقيل سُمّي بذلك لأنّه يشهد ما أعدّ الله له من الكرامة بالقتل، وقيل سمّي بذلك لسقوطه بالأرض، والأرض تسمّى الشاهدة، وقيل سُمّي بذلك؛ لأن عليه شاهدا يشهد بكونه شهيدا، وهو دمه فإنه يُبعث وجرحه يثعب دما، وقيل سُمّوا شهداء لأنّهم ممّن يُسْتَشْهَدُ يوم القيامة مع النبي صلى الله عليه وسلم، على الأمم الخالية، والشهادة تكون للأفضل فالأفضل من الأمّة، فأفضلهم من قُتل في سبيل الله[4]».

---

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1402هـ - 1981م، (مادة شهد)..

(2) ابن منظور، لسان العرب، دار الجيل، بيروت، 1408هـ - 1988م، (مادة شهد).

(3) لسان العرب (مادة شهد).

(4) ينظر: لسان العرب، معجم مقاييس اللّغة (مادة شهد)، صحيح مسلم بشرح النووي، إشراف حسن عباس قطب، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، الرياض، ط1، 1424هـ - 2003م، 1/ 164.

هذا عن المدلول اللغوي للفظة "الشهيد"، أمّا الصورة الاصطلاحية التي أصبح عليها في الإسلام، فأطلق الشهيد على «من يقتل في ساحة المعركة في سبيل الله ومن أجل إعلاء كلمته»[1]، وبعبارة أخرى: «بأنّه الذي يقتل في سبيل الله تعالى صابرًا ومحتسبًا مقبلًا غير مدبرٍ»[2].

أمّا في الأديان والاعتقادات الأخرى فيطلق الشهيد: على الشخص الذي يضحي بنفسه من أجل دينه أو دفاعا عن معتقده[3].

وعلى اعتبار ما تقدّم، ورغم الاختلاف الواضح بين المعنى اللغوي والاصطلاحي للفظة "الشهيد"، إلّا أنّ معنى الحضور والمشاهدة بقي كامنا في لفظ الشهيد، فتلاقى الاستعمالان اللغوي والإسلامي في احتوائها على معنى الحضور، أو المشاهدة أو العلم. غير أنّ الذي حدث هو أنّه بعد أن كان هذا المعنى في الاستعمال اللغوي مطلقًا، صار في الاصطلاح مختصًّا غالبا فيمن يحضر المعركة، ضدّ الكفر إعلاءً لكلمة الله وجهادًا في سبيله[4].

والشهيد في الأصل من قُتِل مجاهدًا في سبيل الله، ثمّ وسّع النبيّ صلى الله عليه وسلم مفهوم الشهادة، فعن سعيد بن زيد رضي الله عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «من قُتل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتِل دون أهله، فهو شهيد، ومن قُتِل دون دينه، فهو شهيد، ومن قُتِل دون دمه، فهو شهيد»[5].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «من قُتِل في سبيل الله فهو شهيدٌ، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد، ومن مات من البطن فهو شهيد»[6].

وفي رواية لمسلم أيضا قال: «الشهداء خمسة: المطعون والمبطون والغرق وصاحب الهدم والشهيد في سبيل الله»[7].

2-قيمة الشهادة والشهيد:

إنّ التقويم الكبير لمعنى الشهادة، والاعتزاز بما قدّمه الشهداء من تضحيات، ترك أثرا واضحا، وصدى قويا في الشعر،

---

(1) الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط2، 1419هـ - 1999م، 14/ 282.

(2) عبد الرحمن مرضي علّاوي الجُبيلي، الشهادة والشهيد في الشعر العربي في صدر الإسلام والعصر الأموي - دراسة موضوعية وفنية، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ط1، 1425هـ - 2005م، ص: 09.

(3) ينظر: الموسوعة العربية العالمية، 14/ 282.

(4) أيهم عباس حمودي القيسي، شعر العقيدة في عصر صدر الإسلام، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط1، 1406هـ - 1986م، ص: 182.

(5) شرح سنن النسائي المسمى ذخيرة العُقبى في شرح المجتبى، جمع: محمد ابن الشيخ دار آل بروم للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط2، 1428هـ - 2007م، 32/ 79.

(6) صحيح مسلم، 7/ 67.

(7) المصدر نفسه، 7/ 67.

فقد نظر الشعراء إلى الشهداء بعين النبي صلى الله عليه وسلم، وشيّعوهم بما شيّعهم به القرآن، وودّعوهم وداعا دفقًا ثرًّا أمدّ المجاهدين بروح الاستبسال وحفّز فيهم رغبة الاستشهاد. أمّا النظر إليهم بعين النبي صلى الله عليه وسلم فقد كشف عن مكانة الشهداء في السماء، وتتجلّى في أحاديثه هذه المكانة المفعمة بتمجيد الشهداء، وتعظيم أجرهم، وإبراز قيمة تضحياتهم. فعن ابن عباس رضي الله عنه أنّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لمّا أُصيبَ إخوانكم بأحدٍ، جعل الله أرواحَهم في أجواف طيرٍ خُضْرٍ، ترد أنهار الجنّة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظلّ العرش، فلمّا وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلّا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عن الحرب»[1].

وعن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب، قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أبشّرك يا جابر، قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: إنّ أباك حيث أصيب بأحد أحياه الله، ثمّ قال له: ما تحبّ يا عبد الله بن عمرو أن أفعل بك، قال: يا ربّ أحبّ أن تردّني إلى الدّنيا فأقاتل فيك فأُقتلَ مرّةً أخرى»[2].

ولكرامة الشهادة، فقد تمنى الرسول صلى الله عليه وسلم أن يكون من الشهداء، فعن أبي هريرة –رضي الله عنه–، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لولا أن يشُقَّ على المسلمين، ما قعدتُ خلاف سريّةٍ تغزو في سبيل الله أبدا، ولكن لا أجد سَعَة فأحمِلَهم، ولا يجدون سعة، ويشُق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفس محمد بيده! لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتَلُ ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل»[3].

ولم يدخل أحد الجنة وتمنى الخروج منها إلا الشهيد، لما يرى من الكرامة، فعن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «ما من نفس تموت، لها عند الله خير، يسرها أنها ترجع إلى الدنيا، ولا أن لها الدنيا وما فيها، إلا الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع فيُقتَلَ في الدنيا، لما يرى من فضل الشهادة»[4].

أمّا ما شيّع القرآن به الشهداء، فهو قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ**﴾[5]، وقوله: ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (169) فَرِحِينَ بِمَا آَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[6].

جاء في تفسير الطبري: «ولا تحسبنّهم يا محمد أمواتًا، لا يُحسّون شيئا، ولا يلتذّون، ولا يتنعّمون، فإنّهم أحياء عندي

---

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، 1984م، 3/ 170 . 171.

(2) المصدر نفسه، ص: 172.

(3) صحيح مسلم، 7/ 22 – 23.

(4) صحيح مسلم، 7/ 26.

(5) سورة البقرة، الآية 154.

(6) سورة آل عمران، الآية 169 – 170.

متنعّمون في رزقي، فرحون مسرورون بما آتيتهم من كرامتي وفضلي، وحبوتهم به من جزيل ثوابي وعطائي»[1].

وذكر ابن عاشور في تفسيره أنّ القرآن قد أثبت للمجاهدين موتا ظاهرا بقوله "قُتلوا" ونفى عنهم الموت الحقيقي بقوله: "**بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**"، فعلمنا أنّهم وإن كانوا أموات الأجسام فهم أحياء الأرواح، حياة زائدة على حقيقة بقاء الأرواح، غير مضمحلّة، بل هي حياة بمعنى تحقّق آثار الحياة لأرواحهم من حصول اللّذّات والمدركات السارّة لأنفسهم، ومسرّتهم بإخوانهم، ولذلك كان قوله: "**عِنْدَ رَبِّهِمْ**" دليلا على أنّ حياتهم حياة خاصّة بهم ليست هي الحياة المتعارفة في هذا العالم ... ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه قال: أرواح الشهداء على نهر بباب الجنّة يُقال له: بارق، يخرج عليهم رزقهم من الجنّة بكرة وعشيّا»[2].

3-الشهادة في شعر عصر صدر الإسلام:

وقد صوّر الشعر حرص المسلمين الأوائل على خوض الجهاد المفضي إلى الاستشهاد، فأضحوا ينابيع دائمة للشهادة، ففي غزوة بدر وحينما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر، إلّا أدخله الله الجنّة»، فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة، وفي يده تمرات يأكلهن: بخْ بخْ، فما بيني وبين أن أدخل الجنّة إلّا أن يقتلني هؤلاء! ثمّ قذف التمرات من يده، وأخذ سيفه فقاتل القوم حتّى قُتل، وهو يقول:

ركضـــــــا إلى الله بغـــــــير زاد إلّا التّقـــى وعمـــل الـــمِعَادِ
والصـــبر في الله علـــى الـــجهاد وكـــلّ زاد عرضـــة النّفـــادِ
غـــــــير التقـــــــى والـــــــبر والرشـــــــاد[3]

فاستجاب الله عزّ وجلّ لأمنيته، ورزقه الشهادة.

ويعكس مجاهد من المسلمين في يوم "بئر معونة" نموذجا رفيعا للشهادة بشكل أذهل قاتله، فما كان منه إلا أن أعلن إسلامه، يقول جبّار: "إنّ ممّا دعاني إلى الإسلام أنّي طعنت رجلا منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعته يقول: فُزتُ والله، فقلت في نفسي: ما فاز، ألستُ قد قتلتُ الرّجل؟! قال: حتّى سألتُ بعد ذلك عن قوله، فقالوا: الشّهادة، فقلْتُ: فاز لَعمر الله"[4].

---

(1) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 3/ 170.

(2) تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسيّة للنشر، تونس، 1984م، 1/ 165 . 166.

(3) ابن جرير الطبري، تاريخ الطبري (تاريخ الأمم والملوك)، مؤسسو عزالدين للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1407هـ - 1987م، مج 1، ج 2/ 541؛ والنويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 155/6 - 156.

(4) ابن هشام، سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 187/3.

وتغدو الشهادة في سبيل الله حلما جميلا يتراءى للشعراء في أرقى صوره، فالإيمان الروحي بقيمة الشهادة، وفضل الشهداء في الدنيا والآخرة، كان كفيلا بأن يستنهض الهمم ويبعث الحماس في النفوس، فيرخص الموت ويُستطاب وتتسابق الخطى للشّهادة على أعتاب النصّ الشعري.

ففي غزوة مؤتة قاتل زيد بن الحارثة براية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتّى قُتل شهيدا، ثمّ أخذ جعفر بن أبي طالب الرّاية، وجعل يُقاتل بثباتٍ متمثّلا بأبيات جسّد فيها إيمانه الرّاسخ بالشهادة، وتلهّفه للجنّة وأطيابها وشرابها، وفي ذلك يقول:

يـا حبّـذا الـجنّةُ واقترابهـا طيّبـةً وبـاردًا شـرابُهَا
والـرّوم رومٌ قـد دنـا عـذابُها كـافرةً بعيـدةً أنسـابُهَا
عَلـيّ إذْ لاقيتُهَـا ضِـرَابُها[1]

وتمسّك جعفر براية المسلمين، فأخذها بيمينه فقُطعت، فأخذها بشماله فقُطعت، فاحتضنها بعضديْه حتّى استشهد، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة[2]، فلمّا استشهد جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الرّاية، ثمّ تقدّم بها . وهو على فرسه . ولما بدا على نفسه التردّد بين الإقدام والإحجام نزل عن جواده، وجعل يُخاطبها مهدّدا كأنها شخص آخر، فها هو يقول لها[3]:

أقسمت يا نفس لتنزلنّه لتنزلنّ أو لتُكرهنّه
إن أجلب الناس وشدّوا الرنّه مالي أراك تكرهين الجنّه
قد طالما قد كنتِ مطمئنّه هل أنت إلّا نطفة في شنّه[4]

ولأنّ الموت أبرز حقائق وجوده، والشهادة هي الأمنية التي طالما تمنّاها، ترتفع استثارة الشاعر لنفسه قائلا:

يا نفس إلّا تُقتَلِي تَمُوتِي هذا حِمامُ الموتِ قد صَلِيتِ
وما تمنّيتِ فقد أُعطيتِ إن تفعلي فعلهما هُديتِ[5]

واستمات عبد الله بن رواحة في طلب الشهادة حتّى نالها، «ثمّ أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتّى قُتل

---

(1) السيرة النبوية، 433/3 – 434.

(2) السيرة النبوية، 434/3.

(3) ينظر: نايف معروف، الأدب الإسلامي في عهد النّبوّة وخلافة الرّاشدين، دار النّفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1410هـ – 1990م، ص: 210.

(4) السيرة النبوية، 3/ 434 . 435. أجلب الناس: صاحوا واجتمعوا، الرنّه: صوت فيه ترجيع يُشبه البكاء، النطفة: الماء القليل الصافي، والشنّه: القربة القديمة.

(5) السيرة النبوية، 435/3.

شهيدا»[1].

إنّ التعظيم الكبير لمعنى الشهادة في الإسلام وتقديسها غاية التّقديس، حفّز الأمهات إلى دفع فلذات أكبادهنّ لخوض غمار الحرب طمعا بالشهادة في سبيل الله، ولعلّ خير مثال على ذلك الشاعرة الخنساء التي حضرت حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال، فقالت لهم من أوّل اللّيل: «إنّكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله غيره إنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدنيا الفانية، يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[2]، فإذا أصبحتم غدا إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها، واضطرمت لظى على سباقها، وجللت نارا على أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها، عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة، في دار الخلد والمقامة، فخرج بنوها قابلين لنصحها، عازمين على قولها فصاغوا نصيحة أمّهم أنشودة شعرية خلابة رددت توقيعاتها في رحاب معركة القادسية. فلمّا أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم وأنشأ أوّلهم يقول:

يا إخوتي إنّ العجوز الناصحه ... قد نصحتنا إذ دعتنا البارحه
مقالة ذات بيان واضحه ... فباكروا الحرب الضروس الكالحه
وإنّما تلقون عند الصائحه ... من آل ساسان كلابا نابحه
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحه ... وأنتم بين حياة صالحه
أو ميتة تورث غنما رابحه

وتقدم فقاتل حتّى استشهد، ثمّ حمل الثاني وهو يقول:

إنّ العجوز ذات حزم وجلد ... والنظر الأوفق والرأي السددْ
قد أمرتنا بالسداد والرشدْ ... نصيحة منها وبرًّا بالولدْ
فباكروا الحرب حماة في العددْ ... إمّا لفوز بارد عان الكبدْ
أو ميتة تورثكم غنم الأبدْ ... في جنة الفردوس والعيش الرغدْ

فقاتل إلى أن استشهد، ثمّ حمل الثالث وهو يقول:

والله لا نعصي العجوز حرفا ... قد أمرتنا حربا وعطفا
نصحا وبرا صادقا ولطفا ... فباكروا الحرب الضروس زحفا
إنّا نرى التقصير عنهم ضعفا ... والقتل فيكم نجدة وعرفا

---

(1) السيرة النبوية، 436/3.

(2) سورة آل عمران، الآية 200.

فقاتل حتّى استشهد، ثمّ حمل الرّابع وهو يقول:

لســـــت لـــــخنساء ولا للأحـــــزم ولا لعمـــــرو ذي الســـــناء الأقـــــدمِ
إن لم أرد في الــجيش جـيش الأعجـم مــاض علــى الــهول خضــم خضــرم
إمّـــــا لفـــــوز عاجـــــل ومغـــــنم أو لوفـــــاة في الســـــبيل الأكـــــرم

فقاتل حتّى استشهد[1].

فلمّا وصل الخبر إلى الخنساء ضربت أجمل مثل في التجمّل والإيمان حين قالت: «الحمد لله الذي شرّفني بقتلهم، وأرجو من ربّي أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته»[2].

وقد استطاع الشعراء في باب تخليد الشهداء أن يستوعبوا مضامين الشهادة، وأن يتمثّلوا معانيها، للتعبير عن أحاسيس المسلمين النّبيلة، ومشاعرهم الصادقة التي تصاعدت وهم يستقبلون مواكب الشهداء، فشيع الشعراء الشهداء بما يليق بهم من تمجيد واعتزاز لم يظفر بمثله غير الشهيد. «فكان رثاء الشهداء مزيجا من صور البطولة النادرة، والشجاعة الفائقة المقرونة بثواب الآخرة وجنانها، وأطيابها، والمنزلة الرفيعة التي أعدّها الله تعالى للشهداء، فكان الشعر في هذا الاتّجاه حافزا على التضحية، وباعثا على الاندفاع لنيل شرف الاستشهاد»[3].

ويحدث استشهاد سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عمّ النبي ونجيّه وصفيّه وقعا استثنائيا على الشعراء، فيترجم قصائد خوالد تتغنّى بشرف الشهادة وتكبر قيمتها، يقول كعب بن مالك:

ولقــد هُــدِدْتُ لِفقــدِ حمــزةَ هَــدَّةً ظلَّــتْ بنــاةُ الجــوفِ منهــا تُرعَــدُ
عــــمّ النــــبيِّ محمــــدٍ وصــــفيُّه وَرَدَ الحِمَــــامَ فَطَــــابَ ذاك الــــمورِدُ
وأَتَــــى الــــمَنيّةَ مُعْلَمًــــا في أســــرةٍ نصــــروا النــــبيَّ ومــــنهم الــــمُستَشْهِدُ
ولقــــد إِخَــــالُ هِنْــــدًا بُشِّــــرَتْ لِتُميــــتَ داخــــلَ غُصَّــــةٍ لا تَــــبرُدُ
شــتّان مــن هــو في جهــنّم ثاويــا أبــدًا ومَــنْ هــو في الجنــان مُــخَلَّدُ[4]

بينما يبيّن حسّان بن ثابت في رثائه لحمزة جلل المصاب وفداحة الفقد لكن شرف الشهادة ورضوان الله هو الأكرم،

---

(1) شرح ديوان الخنساء، شرحه واعتنى به: إبراهيم شمس الدّين ومحمد فاضلي، دار صبح، بيروت، لبنان: ط1، 2008م - 1428هـ، ص: 8 - 9. حرب ضروس: شديدة مُهلكة، الجائحة: الهلكة، ذو السناء الأقدام: صاحب الرفعة العريقة، خضرم: كثير العطاء.

(2) ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1412هـ - 1992م، 4/ 1828 - 1829.

(3) شعر العقيدة في عصر صدر الإسلام، ص: 188.

(4) السيرة النبوية، 3/ 137 - 139. بنات الجوف: أراد قلبه وما اتّصل به من كبده وأمعائه، معلما: مشهرا نفسه بعلامة تميزه عن سائر المحاربين، أسرة: رهط، ثاويا: مقيما لا يبرحها.

يقول:

مـــا لشـــهيد بـــين أرمـــاحكم، شـــلّت يـــدا وحشـــيّ مِـــن قاتـــل
أظلمـــــــتِ الأرضُ لفقدانـــــــهِ، واســـودّ نـــور القمـــر الناصـــل
صـــلّى عليـــك الله في جنّـــةٍ عاليـــةٍ، مكرّمـــة الـــداخلِ
كنّـــا نـــرى حمـــزة حـــرزا لنـــا مـــن كـــلّ أمـــر نابنـــا نـــازلِ
وكـــان في الإســـلام ذا تُـــدْرَإٍ لم يـــك بـــالواني، ولا الـــخاذلِ
لا تفرحـــي يـــا هنـــدُ، واســـتحلبي دمعًـــا، وأذري عـــبرة الثاكـــل
أرداهـــمُ حمـــزةُ في أســـرةٍ، يمشـــون تحـــت الحلـــقِ الـــذائلِ
غـــداةَ جبريـــلُ وَزيـــرٌ لـــه، نِعْـــمَ وزيـــرُ الفـــارسِ الحامـــلِ[1]

ويبقى حديث الشعراء عن شهداء مؤتة حديثا متميّزا، لأنّه مملوء بروح الإيمان ومفعم بصدق ما آمنوا به، فالشاعر كعب بن مالك حيث يتحدّث عن شهداء مؤتة الثلاثة: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة فإنّه يمجّد استشهادهم ويعظّم أجرهم، ويقف عند جعفر وقفة خاصة، فوقع استشهاده كان له أثر كبير في نفسيّته، «فركب الشهداء سار في ركاب جعفر أعلى القادة راية، وأسمى الرّادة غاية، وأعظمهم سؤددا، وأكرمهم محتدا»[2]. يقول:

نـــام العيـــونُ ودمـــع عينـــك يهمـــل سـحًّا كمـــا وكـــف الطّبـــاب الـــمُخضِلُ
وجـــدا علـــى النّفـــرِ الـــذين تتـــابعوا يومـــا بمؤتـــةَ أُســـندوا لم يُنقلـــوا
صـــلّى الإلـــهُ علـــيهم مـــن فتيـــةٍ وســـقى عظـــامهمُ الغَمَـــامُ الـــمسبلُ
صـــبروا بمؤتـــةَ للإلَـــهِ نفوسَـــهُم حـــذَرَ الـــرّدى ومـــخافةَ أن ينكلـــوا
إذ يهتـــــدون بجعفـــــر ولوائـــــه قـــــدّامَ أوّلهـــــم فـــــنعمَ الأوّلُ
فتغيَّـــرَ القمـــرُ الـــمنيرُ لفقـــدِه والشَّـمسُ قـد كُسِـفَتْ وكـادتْ تأْفِـلُ
قـــرْمٌ عـــلا بنيانُـــه مِـــن هاشـــم فرعـــا أشـــمَّ وسُـــؤدُدًا مـــا يُنْقَـــلُ
قـــومٌ بهـــم عصـــم الإلَـــهُ عبـــادَهُ وعلـــيهمُ نـــزلَ الكتـــابُ الـــمنزَلُ[3]

---

(1) ديـوان حسّـان بـن ثابـت، دار صـادر، بيـروت، لبنـان، ط2، 1430هـ - 2009م، ص: 193. وحشـي: قاتـل حمـزة، الناصل: الخارج من السحاب، تدرأ: قوة، هند: هي بنت عتبة بن ربيعة، قتل حمزة أباها يوم بدر، الحلق الذائل: الدروع الطويلة الذيل، الحامل: الذي يحمل عن الناس كلّ شيء.

(2) غـازي طليمـات وعرفـان الأشـقر، الشـعر فـي عصـر النبـوّة والخلافـة الرّاشـدة، قضـاياه وأغراضـه، دار الفكـر، دمشـق، ط1، 1428هـ - 2007م، ص: 212.

(3) السيرة النبويـة، 3/ 443 - 444. يهمـل: يسـيل، سـحا: صـبا، وكـف: قطـر، الطبـاب: ثقـب فـي خـرز المـزادة التـي يجعل فيها الماء، المخضل: المتندى، المسبل: المعطر، ينكلوا: يرجعون عن عدوهم هائبين له، تأفل: تغيب، القرم: السيد.

4-الشاعر الشهيد:

ولقد ارتأينا في هذا المقام أن يكون ختام حديثنا صورة موجزة حول الشاعر الصحابي الشهيد "عامر بن فُهَيْرة" وهو من الشعراء العبيد المغمورين والذي كان استشهاده يوم بئر معونة برهانا على صدق عقيدته، وإيمانه، ودليلا راسخا على فضل الشهداء ومنزلتهم عند الله تعالى.

هو عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر الصديق، وفُهَيرة أمّه، كان مولدا من الأَزْد، أسود اللّون، مملوكا للطفيل بن عبد الله بن سَخْبَرَة، فأسلم وهو مملوك، فاشتراه أبو بكر من الطفيل فأعتقه، وأسلم قبل أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم، وقبل أن يدعوَ فيها إلى الإسلام وكان يرعى الغنم في ثور، يروح بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر في الغار، وكان رفيق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر في هجرتهما إلى المدينة، شهد بدرا، وأُحُدا، ثم قتل يوم بئر معونة شهيدا، وهو ابن أربعين سنة، قتله عامر بن الطفيل، ويروى عنه أنّه قال: «رأيت أوّل طعنة طعنتها عامر بن فُهيرة نورا أخرج فيها»[1].

قال ابن اسحاق عن هشام بن عروة عن أبيه، قال: «لمّا قدم عامر بن الطفيل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال له: من الرجل الذي لمّا قُتل رأيته رفع بين السماء والأرض، حتّى رأيتُ السماء دونه ثمّ وضع، فقال له: هو عامر بن فُهيرة»[2].

ذكر ابن المبارك، وعبد الرزّاق جميعا، عن معمر، عن الزهري، عن عُروة، قال: «طُلب عامر بن فُهَيرة يومئذ في القتلى فلم يوجد، قال عروة: فيرون أن الملائكة دفنته أو رفعته»[3].

يقول الجاحظ في كتاب (**فخر السودان على البيضان**): «ويفخرون بعامر بن فهيرة، بدريّ استشهد يوم بئر معونة، فرآه الناس قد رفعه الله بين السماء والأرض، فليس له في الأرض قبر»[4].

وممّا وصلنا من شعره:

إنّي وجـدْتُ الـموتَ قبـل ذوقِـه إنّ الجبـان حتفـه مـن فوقـه

كـلّ امـرئ مـجاهد بطوقـه كالثور يحمي جلده بروقه[5]

---

(1) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 2/ 796، ابن حجر العسقلاني. الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: طه محمد الزيني، مكتبة الكليات الأزهرية، ط1، 1396هـ - 1976م، 5/ 293 - 294.

(2) السيرة النبوية، 3/ 187.

(3) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، 2/ 797.

(4) رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، 1/ 192.

(5) الإصابة في تمييز الصحابة، 5/ 293 - 294، الطوق: الطاقة والقوة، الروق: بفتح الرّاء وسكون الواو . القرن.

وهكذا فإن الإيمان الروحي بقيمة الشهادة وفضل الشهداء كان كفيلا بأن يهيئ المجاهدين، ويجعل منهم رموزا متقدمة في التضحية، كما كان له وقع مميز عند الشعراء الذين استطاعوا أن يقدموا لنا تجربة حية نابضة عبرت عن واقعه وحلمهم في آن واحد.